فيها النور والمفضّل ان تكون الشبابيك من الجهة الشماليّة وان تكون عاليـة لينفـذ الضوء من علُ . اما الجدران فلتكن مصبوغةً بلون رمادي فاتح لا بلون ابيض يدق . ولتجهّز الكلل (البردايات) في الجهة التي تدخل منها الشمس ولتكن هذه الكلل ملوّنة غير كثيفة حاجبة للنور (لهُ بقيّة)

اقدم وصف لآثار دير القلعة

مع بشرح وتعليق حواشيهِ احد زوّار الدير سابقاً

توطئة

انّ بين الرحل التي كتبها اصحاب الاسفار في القرن الثامن عشر رحلةً كثيرة الاوصاف لآثار بلادنا كتبها الرحّالة حنّا ماريتي الايطـالي فنشرها بالايطاليّة في ليفرنو سنة ١٧٨٧ في مجلدين يبلغ مجموع صفحاتها ٥٠٠ صفحة Giovanni Mariti: Viaggio da Gerusalemme per le Coste della Soria, Livorno 1787 وقد ضمّن كتابهُ هذا فوائد عديدة تاريخيّة وجغرافيّة وزراعيّة عن احوال فلسطين والشام ووصف الطوائف النصرانيّـة وعدّد اسماء اساقفتها وذكر عاداتها وطقوسها الى غير ذلك مما تُستحبُّ مطالعتـهُ . وادرج كذلك في كتابهِ سفرًا نادرًا يشتمل على تاريخ القبط ليوسف ابي دقن منقولًا الى اللاتينيّـة . وفوق كل ذلك شأنًا وصف المؤلف للاثار القديمة التي رجدها في سواحل الشام كصيداء ونهر الكلب وبيروت . ولهُ فصلان في دير القلعة رأينا ان نترجمهما لما فيهما من الاوصاف في آثار ذلك الدير حيث قام على عهد الرومان هيكل بعل مرقد الشهير . وقد وجد من الكتابات ما فُقد من بعدهِ فاستحقّ شكر العلماء بتدوينهِ لها

كنت سمعتُ غير مرّة ذكر بعض الاخربة الشهيرة التي موقعها في مقاطعة كسروان فوق الجبل المشرف على بيروت في مكان يُدعى اليوم بالعربيّة « مار حنّا دير القلعة » وكان يُقال لي انّ هذه الآثار لم يأتِ على وصفها احد من السيّاح . فحدث لي الفرصة المناسبة لوجودي قريبًا من هذا المكان الى ان ازور هذه الاخربة واتبيّن قدمها وزادني رغبةً في ذلك صديقي السيد منداني الذي كان سابقًا زار هذه المآثر القديمة

وكان اذ ذاك في بيروت راهبٌ يدعى يوشافاط من رهبـان القديس انطونيوس الموارنة المعروفين برهبان مار اشعيا فتعيّن على مار يوحنّا دير القلعة . وهذا الاب الذي

كان درس في رومية في دير رهبانيتهِ هناك كان يعرف ما للآثار القديمة من عظم الشأن ومن ثمَّ فاوضني مرارًا في هذا المعنى وحرَّضني على زيارة هذه البقايا الدالَّة على عظم الرومانيين . فعزمتُ على مباشرة هذا السفر الصغير لا سيَّما انَّ حضرة الاب عرض عليَّ بلطفهِ ان يرافقني ويقودني بعد ذلك على سكة الامبراطور انطونينوس الى نهر الكلب

فكان سفرنا من بيروت صباح اليوم ٢٤ من تموز من السنة ١٧٦٧ وخرجنا من المدينة قبل السحر فرارًا من وطأة الحرّ فتوجَّهنا ونحن راكبون الخيل الى شمالي البلدة ثم قطعنا نهر بيروت وملنا الى اليمين تاركين السهل ومتوقلين آكام كسروان الاولى وهي كلها مزدانة بالكروم او مزروعة بشجر التوت

ثم بلغنا الى طرق وعرة وضيّقة كان بعضها منقورًا بالصخر لكنَّ خيلنا كانت تالف هذه المسالك الجبليَّة فتجري فيها بقدم راسخة وعليهِ أرخينا لها العنان لتسير على هواها . وقد خفَّف علينا هذا العناء ما كنَّا نراه عن جهتي الطريق من شجيرات الآس والنباتات النضرة والزهور المتفتحة وكنَّا نستنشق الروائح العطرة التي تنبعث من تلك الرياحين ولا سيما الخزامى (lavandula Stoechas Lin.) والناردين (١

وبعد ان صعدنا من تلّ الى آخر بلغ بنا السير الى قمَّة الجبل الذي بُني فوقهُ مار حنَّا دير القلعة فوجدنا غابة من الصنوبر تمتدُّ فوق تلك الروابي فاخذنا في ظلّها نصيبًا من الراحة بعد تعب الطريق وكانت الشمس طلعت قبل وصولنا اليها ثمَّ واصلنا السير بنشاط اعظم (٢

وفي اثناء الطريق وسط هذه الغابة لحظنا في امكنة شتى نواويس منقورة في الصخور التي يتركَّب منها الجبل وهي تُرى على هيئة صناديق عظيمة وبعضها في وسط الصخور معتزلة من نواحيها الاربعة والبعض الآخر ليست بمعتزلة لكنَّها باجمعها ملتصقة في الصخر من جهتها السفلى وكان يُجعل فوقها صفائح عظيمة مثلَّثة الزوايا على شبه الجلمون . وهذه القبور مفتوحة والبعض منها تُرى أغطياتها امَّا فوقها مُزاحةً عنها او مقلوبة على جوانبها ومحطَّمة ولعلَّهُ يمكن وجود بعضها ممَّا بقي على حالتهِ الاولى مقفلًا

١) ترى من هذه الاوصاف انَّ الكاتب لم يفتهُ شيءٌ من مزايا الجبل وخواصهِ

٢) لم يذكر الكاتب كنيسة مار سابين التي ترى اليوم في مقدمة تلك الغابة . وهذا دليل على انَّها لم تكن بُنيت بعد في عهده

ومع كل ما بذلنا من التدقيق في فحص هذه النواويس لم نجد فيها البتّة اثرًا تاريخيًا من كتابة او صورة رمزيّة وغاية ما يلوح للناظر انّ العمّة اتقنوا صنعها على طريقة ساذجة ومتينة معًا ومن المحتمل ان تكون من آثار قدماء الفينيقيين (١ وقد اكّد لي حضرة الاب يوشافاط انهُ تحت هذه الغابة ليس فقط جنوبًا لكن من جهة الشمال ايضًا قبور غيرها على شكلها لم تُنتهك حرمتها بالفتح وانهُ فُتح امامهُ بعضها فلم يجد ضمنها الّا بعض الاوعية مع قليل من الرماد (٢ وقد أُعطيت لي منها قطعٌ اهديتها بعد رجوعي الى فيرنسة الى طبيبنا الشهير الدكتور ڤيلياردي. وقيل انهُ وجدت في هذه النواويس اشياء اخرى غير اني لم اقف على حقيقة الامر وكنت وددت لو امكن فتح واحد منها امامي لاتبيّن ذلك

ولمّا قطعنا غابة الصنوبر سرنا في بُنيّات الطريق حتى انتهينا آخرًا الى دير مار يوحنا بعد اربع ساعات لخروجنا من بيروت وفي الساعة الخامسة والنصف صباحًا من ٢٤ تموز واذا هناك بين الجبال سهل واسع تقرُّ العين بالنظر الى محاسنهِ

فاسرعنا الى دخول الدير لنرتاح هنيهةً فلم نجد فيهِ من الرهبان غير اثنين او ثلاثة وكان الباقون عند طلوع الشمس ساروا الى فلاحة الارض فاسترحنا قليلًا وشربنا القهوة. وفي خلال ذلك كنت اعاين امامي من المناظر الفتّانة ما كان يأخذ بمجامع القلب. فانّ النظر كان يكشف من كل جانب على آكام كساها الربيع بحللهِ السندسيّة وهي تتحدّر بالتدريج الى سهول خضراء تمتدُّ الى شاطئ البحر فتمتزج خضرتها بزرقتهِ. ومن جهة الشرق كانت تنتصب جبال عالية تزيّنها الاشجار ومن بقيّة النواحي كانت روابٍ أُخرى شبيهة بمقام دير مار يوحنا تتوسّط بينها وبيننا اودية نضرة

١) وقد بحثت كذلك لعلي اجد في هذه النواويس اثرًا للكتابة فخاب مسعاي . الّا اني لا اظنّ انّ هذه القبور بالغة في القدم . واقدم النقود التي وُجدت فيها كانت من عهد اوغسطوس قيصر ومن المرجّح انّ عهدها يتراوح بين عهد الاسكندر وظهور الاسلام

٢) ليس هذا القول صوابًا وانّما هذه الاوعية مع الرماد وُجدت في مقبرة رومانية عظيمة . وقد اكتشف على بعضها الرحّالة الافرنسي دي برتو (de Bertou) في ذلك المدفن قريبًا من كنيسة مار سابين قبل اواسط القرن التاسع عشر

واسعة فكانت كل هذه المناظر تسحر العين بزخارفها الطبيعية وتؤيد رأيي السابق في بهاء بلاد كسروان ... (١

*

ليس مار يوحنا لا بلدة ولا قلعة ولا مزرعة وانما هناك فقط كنيسة على اسم الصابغ مع دير للرهبان الموارنة. امّا نسبتهُ الى القلعة فلا يعلم احد سببها. ومن ثم لا اعرف ايكون هذا الاسم دليلًا على حصن قديم كان هناك او يكون دُعي الدير بذلك لِمَا وُجد ثمّة من بقايا الجدران والابنية الضخمة. وفي حقيقة الواقع أُقيم هناك في القرون الوسطى حصن عُرف بحصن كُلافيان كما افاد غليلموس الصوري في تاريخهِ (ك ١٣ ف ١٦ ومارينو سانوتو ك ٣ ج ٦ ف ١٦)

وبعض الاهلين الساكنين تلك الجهات يزعمون انَّ هناك موقع مدينة بيروت القديمة وقد ذهبوا الى هذا الرأي لِمَا وجدوا في هذا المكان من الاخربة الدالّة على مباني فخيمة لا يُرى مثلها عظمةً في مباني بيروت الحاليَّة. وهو زعم لا سند لهُ لانَّ قدماء المؤرخين وواصفي البلدان مجمعون على انَّ بيروت كانت على ساحل البحر الفينيقي وليس بعيدًا عنهُ بمسافة اربع ساعات (٢

امّا المباني العظيمة التي تُرى حتى اليوم بقاياها على هذا الجبل بخلاف آثار بيروت فيمكن تعليل ذلك بقولنا انَّ هذه الابنية لوقوعها في مكان معتزل عن الناس لم تعمل فيها ايدي الخراب. امّا بيروت فانها لم تزل حافلة بالسكان لحسن مرفاها فكان الاهلون اذا وجدوا آثارًا قديمة وابنية خربة عمدوا اليها فاتخذوها لمبانيهم المستحدثة فتلفت للآثر الجليلة على توالي الاستعمال. هذا ولانَّ آثار دير القلعة لم تنجُ مع ذلك من آفات الزمان. واكثر ما اصابها من ذلك انما كان في هذه السنين الاخيرة كما سترى فقتدت هذه البقايا شيئًا من عظمتها السابقة كما يظهر من تراكم موادها وسوء نظامها (لهُ بقية)

١) والمؤلف يستطرد هنا الى وصف كسروان وبيان حدودهِ ويقسمهُ الى كسروان شمالي يدعوه كسروان غزير والى كسروان جنوبي كسروان بكفيا

٢) وقد سمعنا نحن ايضًا من يذهب الى هذا الرأي الضعيف (راجع مقالة الاب لامنس في دير القلعة في المشرق ٢ : ٥٥) وغاية ما يجوز قولهُ ان دير القلعة كان على عهد الرومان بل في ايام السلوقيين مزارًا يقصدهُ البيروتيون المتعبّدون للبعل